تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعتي القاهرة وبيروت العربية

والأستاذة الدكتورة
إسمت غنيم

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

الباب الرابع

الاسلام

على الرغم من أن الاسلام يعتبر ظاهرة شرقية من الناحيتين الدينية والحضارية الا أن أثره فى أوربا العصور الوسطى كان خطيرا بحيث لا يمكن تتبع تاريخ أوربا فى تلك العصور دون الاشارة الى هـــذا الأثر • حقيقة أن الدولة الاسلامية فى أقصى اتساعها لم تضم سوى أجزاء محدودة من أوربا مثل أسبانيا وصقلية ، فضلا عن بعض جزائر أخرى معروفة فى البحر المتوسط ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الدولة ضمت جميع البلاد المطلة على الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط أى بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، فى الوقت الذى كانت حضارة أوربا لا تزال ترتبط الى حد كبير بذلك البحر • وبعبارة أخرى فإن حركة التوسع الاسلامية ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط مما جعل مؤرخا مثل بيرين يختار هذه الحركة بداية حقيقية للعصور الوسطى وحدا فاصلا بينها وبين العصور القديمة • هذا فضــلا عن أن الدولة الاسلامية غدت بحكم موقعها الجغرافى بمثابة الحلقة التى ربطت القارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقية ، وبالتالى انتقل عن طريقهـــا التراث الحضارى للشرق الى أوربا العصور الوسطى(١) •

وتختلف الغزوات التى تعرضت لها أوربا من جانب العرب منذ القـــرن السابع فى طابعها العام وهدفها ونتائجها عن تلك التى تعرضت لها أوربا قبل ذلك من جانب الجرمان • فهذه الغزوات الأخيرة قامت بها شعوب قديمـــة قدم الامبراطورية الرومانية نفسها ، وربطتها بالامبراطورية صلات تحالف

---

(1) Deanesly : op. cit. pp. 185-187.

وولاء أو حرب وعداء قبل أن تقوم بحركتها الشاملة التى أدت الى غـــزو أراضى الامبراطورية والاستقرار داخل حدودها . أما العرب الذين غزوا الامبراطورية فى القرن السابع ، فلم تربطهم بها صلات سابقة على شيء من الأهمية ، وكل ما هنالك هو أن الامبراطورية الرومانية اكتفت باتخـــاذ بعض اجراءات لحماية أطراف الشام من خطر القبائل الرحل الضاربة فى الصحارى المجاورة ، هذا فضلا عن اقامة دولة الغساسنة على حدود الشـام لحمايتها من الهجمات المعادية من جانب الفرس أو غيرهم . وفيما عدا ذلك كان آخر ما يتوقعه الرومان هو أن تخرج جيوش من جوف البلاد العربية لتهديد العالم الرومانى ، بل ابتلاع أجزاء واسعة من ذلك العالم(١) .

وقد سبق أن رأينا كيف كان الفرس والروم فى شغل شـــاغل بالنزاع والحروب المستمرة فيما بينهم عن الاهتمام بما كان يجرى فى شبه الجزيرة العربية من مولد الرسول محمد عليه الصلاة والسلم سنة ٥٧٠ وهجرته الى المدنية سنة ٦٢٢ ، ثم ما تبع ذلك من انهاء حالة الفوضى والتفكك السياسى والنزاع القبلى التى عاش عليها عرب الشمال قرونا طويلة . وبعبارة أخرى فان انتصار رسالة خاتم النبيين أدت الى جعل العرب أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد شعاره لا اله الا الله محمد رسول الله . على أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم ، لأن الله أرسل محمدا شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ليهدى الناس كافة الى دين الحق ، ومن ثم غدت مهمة الرسول بعد أن تم نشر الاسلام في بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق ديانته والايمان برسالته . ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفـدهم النبى الى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا اعراضا بل امتهانا ، مما جعل النبى يعد العدة للغزو والجهاد ، وان كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد وتتسع الا بعد وفاة النبى نفسه سنة ٦٣٢ .

وليس العجيب فى أمر الغزوات هو أن العرب تجاسروا على مهاجمـــة

---

(1) Pirenne : Mohammed and Charlemagne. p. 147.

الفرس والروم ، وهما أكبر امبراطوريتين عرفهما العالم عند مستهل القرن السابع ، وانما العجيب هو أن العرب غزوا فارس في الوقت نفسه الذى غزوا دولة الروم ، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين في وقت واحد . ذلك أن الاحتكاك بين المسلمين والروم بدأ فعلا في بادية الشام سنة ٦٢٩ ، أى في العام التالى مباشرة لانتهاء الحرب بين الروم والفرس(١) . وكانت دولة الروم — أو الدولة البيزنطية — تعانى حينئذ الأمرين من جراء ما تطلبته حروبها ضد فارس من جهة وضد البرابرة المهاجمين لأراضيها في البلقان من جهة أخرى ، زيادة على النزعة الانفصالية التى أخذت تقوى عند أقباط مصر والأراميين في سوريا والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى ، مما هدد كيان الدولة ووحدتها تهديدا خطيرا(٢) . ومهما يكن من أمر فان موجة الفتوح العربية لم تتخذ شكلها الكاسح الا عقب وفاة الرسول ، أى منذ خلافة أبى بكر الذى بادر بايفاد جيشين لغزو الروم والفرس سنة ٦٣٣ . وهكذا أخذت الجيوش العربية — بقيادة أبى عبيدة الجراح — تعمل في الشام ضد الروم ، في حين كان القسم الثانى من هذه الجيوش — بقيادة خالد بن الوليد — يعمل في العراق ضد الفرس(٣) . وقد حاول هرقل — امبراطور الروم — ارسال قوة بقيادة أخيه تيودور لانقاذ الموقف في فلسطين ، ولكن القائد العربى — خالد بن الوليد — أتى مسرعا من العراق لنجدة اخوانه بالشام ، وبذلك أمكن انزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في موقعة أجنادين سنة ٦٣٤(٤) . وعندما توفى الخليفة أبو بكر في هذه السنة السابقة ، خلفه عمر (٦٣٤ — ٦٤٤) الذى اتسمت الفتوح الاسلامية في عصره ، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل ، وعندئذ ثار هرقل وحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب ، ولكن خالد أنزل هزيمة جديدة ساحقة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ . وقد خيل لهرقل في هذه المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطى بنفسه ضد المسلمين ، ولكنه سرعان

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 216.
(2) Cam. Med. Hist. Vol, 2, p. 231.
(3) Idem pp. 338-339.
(4) Idem, p. 341.

ما استكشف أنه لم يعد يقوى على مثل هذا الجهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره وأخذ المرض يدب في جسده . واذا كان هرقل قد أمضى سنتى ٦٣٥ ، ٦٣٦ في جبهة الشام ، الا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب فترك بيت المقدس تقع فى أيديهم (٦٣٧ — ٦٣٨) (١) . ويروى القلقشندى أن هرقل عندما أيس من أمر الشام خرج الى الرها ، حيث وقف على مرتفع والتفت الى الشام وقال « السلام عليك يا سوريا ، سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك رومى بعدها الا خائفا » . ثم عاد الى القسطنطينية (٢) .

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة وأثرا من انتصاراتهم على الروم . ففى سنة ٦٣٧ كان العرب قد فتحوا العراق ، وفى سنة ٦٤١ أحرز العرب انتصارا عظيما على الفرس عند نهاوند مما فتح أمامهم الطريق الى قلب بلاد فارس(٣) . ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة فى وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزدجرد الثالث آخر موك بنى ساسان سنة ٦٥٢ وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس(٤) .

وفى هذه الأثناء استمرت القوات العربية التى اجتاحت بلاد النهرين تهاجم الأطراف الشرقية للدولة الرومانية من جهة الجنوب ، فضلا عن مهاجمتها من شمال الشام . وقد بذل الامبراطور هرقل محاولة يائسة لانقاذ شمال الشام والعراق من أيدى المسلمين ، فأرسل بعض جيوشه لهذا الغرض ، ولكنها منيت بالهزيمة ، واضطرت الى الانسحاب ، وبذلك سقطت المدن والمعاقل المهمة الموجودة فى شمال العراق والشام مثل ماردين والرها وميافارقين (٦٣٨ — ٦٣٩) . وباستيلاء العرب على قيصيرية سنة ٦٤٠ فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس وبذلك جاء دور مصر وشمال افريقية (٥) . ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١ أى قبل أن ينتهوا من فتح فارس . ويعتبر فتح مصر بالذات مثلا واضحا على عظم الخسارة التى منيت بها المسيحية ، كما يتخذ دليلا قويا على مدى ضعف الامبراطورية

---

(1) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 190-192.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٩٧ .

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 2. p. 347.

(4) Orton : op. cit. pp. 80-81.

(5) Oman : The Dark Ages. p. 220.

البيزنطية وانحلالها السياسى(١) • وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام فى جوف الدول الاسلامية الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠ ، ومن ثم استأنف العرب فتوحهم بنفس القوة والنشاط • وكان أن أخذ العرب فى فتح ولاية أفريقية سنة ٦٦٤ ، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد(٢) • وكانت حروب المسلمين فى شمال أفريقية طويلة وشاقة ، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب ، بل كان عليهم أيضا أن يتغلبوا على مقاومة البربر المعروفين بقوة المراس • ومهما يكن من أمر فان قرطاجة سقطت أخيرا فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧ ، وان كان نفوذ الخلافة الاسلامية لم يستقر تماما فى شمال أفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير •

وهكذا تحول شمال أفريقية بأكمله من الحضارة اللاتينية الى الحضارة العربية ومن الديانة المسيحية الى الديانة الاسلامية ، حتى البربر الذين طالما أظهروا عنادا يسترعى الانتباه ضد الغزاة السابقين ، سرعان ما اندمجوا فى تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين • وبذلك مرت سبعمائة السنة التى سيطرت فيها أوربا على شمال أفريقية دون أن تترك أثرا فى تلك البلاد سوى الأساطير والأطلال ، فالمسيحية اندثرت ، والحياة الرومانية ذبلت، والمدن تركها الرومان ليعودوا أدراجهم الى أوربا(٣) •

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال افريقية حتى المحيط الأطلسى وانما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا ٧١١ ، كما عبر طارق بن زياد المضيق المعروف

---

(1) Eyre : op. Cit. p. 63.
(2) Orton : op. cit. p. 81.
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 287.

باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتى ٧١١ ، ٧١٣(١) • وبفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية ، اذ فقدت بلادا ارتبطت بهـــا أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر ، فضلا عن بلاد أخرى بمثابة أجزاء أساسية من الوطن المسيحى مثل شمال أفريقية وأسبانيا • وفى جميع هذه البلاد أقبلت نسبة كبيرة من الأهالى على اعتناق الاسلام « عن اختيار وارادة حرة »(٢) • وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة جديرة باهتمام المشتغل بالتاريخ • فالعرب الذين غزوا العالم الرومانى فى القرن السابع وأوائل الثامن كانوا أقل عددا بكثير من الجرمان الذين تدفقوا على قلب ذلك العالم من قبل • ومع ذلك فان الحضارة الرومانية والكنيسة المسيحية تغلبت فى النهاية على هؤلاء الجرمان واستوعبتهم ، فى حين كانت الغلبة فى الجهات التى انتزعها العرب واستقروا فيها — مثل الشام ومصر وشمال أفريقية والأندلس — لحضارة العرب ودياناتهم • ونحن لا نجد لهذه الظاهرة الهامة البارزة سوى تفسير تاريخى واحد ، هو أن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الرومانى ، فى حين ظهر العرب مزودين بعقيدة جديدة وديانة سماوية أدت الى تماسكهم وحالت دون ذوبانهم فى المجتمع الجديد(٣) •

والواقع أن أسباب حركة الفتوح العربية ، والسرعة الفائقة التى تمت بها هذه الحركة ، والنجاح السريع الذى أحرزته ، كانت من الموضوعات التى احتلت جزءا كبيرا من تفكير المؤرخين المحدثين • ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة الرسول سبعون سنة حتى كان الاسلام قد امتد من المحيط الهندى حتى المحيط الأطلسى • حقيقة أن ضعف الفرس والروم كان من العوامل المساعدة التى سهلت مهمة الفتوح العربية ، ولكن لابد من وجود قوى دافعة أدت بالعرب الى الصبر على الجهاد طوعا لا كرها ، حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة فى تاريخ العالم • وهنا حاول بعض الباحثين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة ، فالأستاذ بيكر Becker يريد أن يثبت أن حركة الفتح العربى فى القرن السابع لم تكن مفاجئـــة — كما تبدو — وانما هى

(1) Thompson : op. cit. vol. 1. pp. 163-164.

(٢) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٥١ •

(3) Pierenne : Mohammed and Charlemagne. p. 150.

حلقـــة أخيرة من ســـلسلة طـــويلة بدأت قبـــل ذلك بعـــدة قرون وأدت الى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شـــبه الجـــزيرة العربية ، نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف وتدهور يدل على انهيار سد مأرب فى القرن السادس (١) • وبعبارة أخرى فان تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذى دفع شعوبها السامية الى الهجرة ، ولا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الآراميون والكنعانيون ، أو الهجرات اللاحقة التى قام العرب بها قبل ظهور الاسلام (٢) • ويميل برناردلويس الى مشاركة بيكر هذا الرأى ، فيقول ان بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفـــاف مستمر ، مما أدى الى زحف الصحراء على حساب الأراضى الخضراء ، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم (٣) • أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيرا أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : ان حركة التوسع العربى كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع والحرمان الى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلادا أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا •

ومن الواضح أن هذا الرأى يحوى كثيرا من المبالغة والبعد عن الحقيقة ، لأنه يغفل أثر العامل الدينى والرغبة الصادقة فى الجهاد والاستشهاد ، وهى الروح التى تثبت الوقائع التاريخية أنها سيطرت على جيوش العرب فى الدور الأول من أدوار حركة التوسع • حقيقة ان مؤرخا محدثا مثل توماس أرنولد يقول « ان الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسربت الا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية » (٤) ، ولكن هل نصدق توماس أرنولد فى القرن العشرين أو نصدق حاكما رومانيا معاصرا فى القرن السابع وقد أرسل

(١) القرآن الكريم سورة سبأ (١٥ — ١٧) :

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 331 (C.H. Becker)

(٣) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ص ٢٨ ، ٥٧ •

(٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٧ •

اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحى قائلا « انهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا . ذلك أنهم لا يطمعون فى شىء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم الى الجنة ، فى حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ونخشى الموت ، ياسيدى الامبراطور ! » (١) . أما بيرين Pirenne فيؤكد أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت الى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية ، ويقول ان الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشا رغيدا ، وبين العرب الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع ينادون بأنه لا اله الا الله محمد رسول رسول الله ، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم . حقيقة ان حركة الفتح الاسلامى أعقبتها حركة أخرى للهجرة والاستقرار فى الولايات العربية الجديدة التى تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ الا بعد أن انتهت الأولى بنحو قرنين من الزمان تغيرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءا من الوطن العربى الكبير (٢) .

أما عن نشاط المسلمين البحرى فى البحر المتوسط فيلاحظ أن وصول العرب الى شواطىء هذا البحر واستيلاءهم على موانى الشام ومصر ، جعلهم يهتمون بأمر الأسطول لدفع خطر الروم الذين حاولوا استرداد الاسكندرية سنة ٦٤٢ — ٦٤٣ ثم سنة ٦٥٢ كما استمروا يهددون الغرب بحريا فى فتوحهم الجديدة (٣) . والواقع أن العرب لم يجهلوا البحر فى جاهليتهم ، فقد عرف أهل الجنوب بناء السفن ، وباشروا نوعا من التجارة البحرية النشيطة قبل الاسلام ، ولكن عرب الشمال ظلوا بعيدين عن ممارسة ركوب البحر حتى

---

(1) Eyre : op. cit. pp. 63—64
(2) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 47
(3) Thompson : op. cit. Vol. I p. 160

كانت الفتوح الاسلامية ، وحينئذ أخذوا يكيفون أنفسهم فى وضعهم الجديد كقوة من قوى البحر المتوسط . ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية خطيرة فغزوا قبرس سنة ٦٤٨ ، وأغاروا على الشواطىء الجنوبيه لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى أنزلوا أخيرا هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات الصوارى سنة ٦٥٥ (Phoenix) ، وهى الموقعة التى تعتبر أعظم معركة بحرية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة إكتيوم سنة ٣١ ق‌م (١) . واذا كانت الظروف التى تعرضت لها الدولة الاسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بحصار القسطنطينية عقب هذه الموقعة ، فان الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا سياسة مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا على نطاق واسع حتى وصلت اغاراتهم الى بحر ايجة سنة ٦٦٥ . ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا خبرة كافية بفنون البحر جعلتهم يعبرون الى تراقيا (٦٦٨ - ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها . كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرس ورودس وغيرهما من المواقع البحرية الحصينة فى بحر ايجة ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ - ٦٧٨) (٢) . ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية من السقوط فى أيدى المسلمين عندئذ سوى اختراع النار الاغريقية الذى توصل اليه مهندس سورى الأصل يدعى كالينيقوس Callinicus . أما هذا الاختراع فعبارة عن عدة مركبات تشتعل عندما تصيب الهدف ، مما أنزل بالسفن الاسلامية خسائر جسيمة (٣) .

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا ، حتى كانت أوائل القرن الثامن ، وعندئذ اعتقد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت قد حان للقيام بحملة كبرى تستولى على القسطنطينية وتطيح بالامبراطورية البيزنطية . واختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على

---

(1) Oman : The Dark Ages, p. 239
(2) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 44
(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 283.

رأس هذه الحملة التى شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته الى الشاطىء الأوربى سنة ٧١٧ (١) • وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، اذا بالأسطول الاسلامى يهاجمها من ناحية البحر، حتى كادت المدينة تقع فى أيدى المسلمين لولا النار الاغريقية التى لعبت دورها فى تشتيت سفنهم ، فى الوقت الذى أغرى الامبراطور ليو الأيسورى (٧١٧- ٧٤١) البلغار بمهاجمة المسلمين من الخلف (٢) • وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف المسلمين أمرهم بالانسحاب سنة ٧١٨ بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (٣) • وهكذا تم تجنيب الامبراطورية البيزنطية ، بل أوربا بأجمعها تغييرا خطيرا كان من الثابت أن يترك أثرا بعيدا فى التاريخ لو أن العرب نجحوا فى تحقيق هدفهم بالاستيلاء على القسطنطينية ، مفتاح أوربا من جهة الشرق •

وبعد أن فشل المسلمون فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن تشجع البيزنطيون وأخذوا يدفعون ضغط المسلمين تدريجيا عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قنسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ منتهزا فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية فى أواخر عمرها • وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصرا بحريا على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرس (٤) • ولم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية فى بغداد • وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزا لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضى البيزنطية بحيث كان الضغط الاسلامى على الدولة البيزنطية شديدا وملموسا فى العصر الأموى • ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل مركزهم أكثر بعدا عن الدولة البيزنطية وأراضيها ، ومن ثم قل الضغط الاسلامى على حدود هذه

(1) Idem : pp. 313—314
(2) Ostrogorsky, op. cit. p. 139
(3) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 54,
(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4 pp. 121—122

الدولة بصورة واضحة فى العصر العباسى (١) . ولكن ليس معنى ذلك أن العباسيين لم يهددوا الدولة البيزنطية ، اذ كثيرا ما أوغلت الجيوش العباسية داخل آسيا الصغرى ، حتى وصلت سنة ٧٨٢ الى البسفور ، مما اضطر الامبراطورة ايرين الى شراء مسالمة المسلمين بالمال (٢) . هذا فى الوقت الذى استمرت اغارات العرب البحرية على شاطىء الدولة البيزنطية وثغورها ، حتى استولى المسلمون سنة ٦٠٤ على سالونيكا ونهبوها وأسروا بضعة آلاف من أهلها .

ويلاحظ أن صمود الدولة البيزنطية ونجاحها فى صد المسلمين ، فى الوقت الذى نجح الفرنجة فى صد مسلمى الأندلس عن غاليا وغرب أوربا ، كان له أثر كبير فى مستقبل تاريخ القارة الأوربية . ذلك أن الدولة البيزنطية ظلت حتى الفتوح الاسلامية تمثل المركز الأساسى للحضارة الأوربية فى العصور الوسطى ، ولكن هذه الصفة أخذت تزول عنها عقب حركة التوسع الاسلامى لتقوم الدولة البيزنطية بوظيفة الحد الشرقى للحضارة الأوربية لا مركزها الأساسى . وهكذا أخذ التاريخ البيزنطى منذ اتساع الفتوح الاسلامية يفقد أهميته العامة ، بعد أن صارت الدولة البيزنطية لا تعدو أن تكون درعا يحمى أوربا من خطر آسيا ، فى حين انتقل مركز الثقل للحضارة الأوربية الى الغرب (٣) .

على أن أثر العرب والاسلام فى تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند التغييرات السياسية التى أحدثوها فى أوضاع العالم المعروف ، وانما يبدو هذا الاثر أشد ما يكون وضوحا فى الميدان الحضارى . وهنا نجد الحضارة العربية الاسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين هما اللغة العربية والديانة الاسلامية (٤) . ومازالت السرعة التى انتشرت بها اللغة العربية والديانة

---

(1) Painter : op. cit. p. 44
(2) Vasiliev : op. cit. Tome I p. 317
(3) Eyre : op. cit. p. 64
(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48

الاسلامية تعتبر لغزا يثير حيرة المفكرين • فاللغة العربية ليست باللغة السهلة القليلة التعقيد حتى يقال ان سهولتها أدت الى سرعة انتشـــارها من المحيط الأطلسي حتى الخليج العربي ، ومع ذلك فقد نجحت اللغة العربية في أن تبسط سيادتها على جميع البلاد التى فتحها العرب وحكموها زمنا طويـــلا — باستثناء فرس • لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية الا في ضوء انتشار العقيدة الاسلامية نفسها وما تطلبته هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين • ويقول بيكر أن أوربا العصور الوسطى نظرت الى انتشار الاسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية • وكأن الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال العراق ترتبط جميعا بأصول المسيحية ونشأتها ، فراحت تفسر انتشار الاسلام فى هذه البلاد على أنه لم يتم الا بحد السيف (١) • ولكن بيكر يؤكد أن هذه النظرة — التى ما زال بعض المتعلمين فى أوربا حتى اليوم يعتقدون فى صحتها — بعيدة عن الواقع ، لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة ، وانما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير • فسيطرة العرب السياسية هى التى انتشرت بقوة السلاح ، أما الديانة الاسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من أهالى البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود سواء ، وهو تسامح لم يحظوا به فى ظل حكامهم السابقين (٢) •

وقد أجمع الباحثون أن الحضارة الاسلامية كانت أعظم حضارة شهدها العالم فى العصور الوسطى • فالعرب لم يكونوا مثل غيرهم من العنـــاصر البربرية من جرمان ، وغير جرمان الذين انسابو داخل الامبراطورية الرومانية ، والذين لا تقترن أسماؤهم فى التاريخ غالبا الا بالهدم والتخريب (٣) • وفى الوقت الذى نسمع بما أحدثته اغارات الهون والوندال والقوط من تخريب

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 330
(2) Ibid.
(3) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 46

شامل لكثير من أقاليم أوربا وأفريقية ، اذا بالبلاد التى فتحها العرب واستقروا فيها تتحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف للتزود والاستنارة • وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل أسبانيا وصقلية ، قبل فتح العرب لها وأحوالها بعد استقرارهم بها ، اذ تبدلت أوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب الى نشاط فكرى وتقدم اقتصادى وعمران شامل وازدياد مطرد فى السكان والأموال (١) •

حقيقة ان العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضارى شامل بمعنى الكلمة • ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها • وبفضل هذا استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات فى غرب آسيا وشمال افريقية ، وهى الدراسات اليونانية التى ترجمها الأراميون والكنعانيون الى لغاتهم السامية حتى جاء العرب لينقلوها الى العربية (٢) • وهكذا أثبتت الأبحاث الأخيرة فساد النظرية القائلة بأن العرب قضوا على الحضارة القديمة فى منطقة الشرق الأدنى وأقاموا بدلا منها حضارة جديدة ، لأن التطور التاريخى ثابت ومستمر • وبعبارة أخرى فان الاسلام ورث الحضارة الشرقية الهللينستية وتعهد هذه الحضارة بالحفظ والعناية والتغذية المستمرة • ولكن حدث عندما نقل الخلفاء العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد أن أخذ الأثر الهللينستى يضعف — الى حد ما — فى الحضارة الاسلامية ليزداد فيها أثر الحضارات الشرقية كالفارسية والهندية والصينية • وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى أخذ غرب أوربا يزداد — هو الآخر — تباعدا عن الحضارة الهللينستية بعد قيام الممالك الجرمانية ، مما أدى الى التباعد واتساع الفجوة بين الحضارتين الاسلامية والغربية (٣) • وهكذا غدت الحضارة الاسلامية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 432—435
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 330
(3) Ibid.

مجمع العلوم اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والصينية ، فى حين غدت اللغة العربية الواسطة الأساسية للترجمة والربط بين هذه العلوم مما جعل الطابع العربى يبدو مميزا لهذه النهضة الحضارية الشاملة (١) .

وكان أن أفاقت أوربا من وحشة العصور المظلمة فى أواخر القرن الحادى عشر لتجد نفسها أمام حضارة اسلامية شامخة البناء ، فأخذت أوربا تقبل على هذه الحضارة الزاهرة ، وأسرع الأوربيون الى مراكز الحضارة الاسلامية يرتشفون من معينها الفياض ويرتوون من منهلها العذب . وازداد تدفق طلاب العلم الأوربيين بوجه خاص على الأندلس وصقلية حيث أخذوا يترجمون الى اللاتينية كل ما استطاعوا ترجمته فى الفلسفة والعلوم والرياضيات وغيرها من ألوان النشاط الفكرى (٢) . حقيقة أن بعض هذه المعلومات التى ترجمها الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل أخذها العرب عن التراث اليونانى القديم ، ولكن الفضل يرجع اليهم فى المحافظة عليها وتصحيحها وشرحها ، حتى اذا ما اندثر التراث اليونانى — أو كاد يضيع — فى الفترة المظلمة التى أعقبت سقوط الامبراطورية فى الغرب ، لم يبق التراث اليونانى الفكرى قائما فى كثير من الحالات الا فى التراجم العربية (٣) . وحسبنا ما أحدثته شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو من ثورة ضخمة فى أوربا العصور الوسطى (٤) ، وما سببته معارف العرب فى الحساب والهندسة والجبر وحساب المثلثات من انقلاب شامل فى تطور التفكير الرياضى الأوربى ، وما ترتب على انتقال معلومات العرب فى الفلك والجغرافيا الى الأوربيين من تطور شامل ، وما اعترف به الأوربيون أنفسهم من تقدم العرب فى الطبيعة والكيمياء والطب ، حتى استمرت الجامعات الأوربية منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر تعتمد على كثير من مؤلفات المسلمين فى هذه العلوم (٥) . هذا كله

---

(1) Deanesly : op. cit. p. 270 & Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48

(2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century. p. 287.

(3) Eyre : op. cit. pp. 273—279

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4 p. 296.

(5) Eyre : op. cit. pp. 793—294

فضلا عن تفوق المسلمين فى الفنون الكبرى والصغرى ، مما جعل الأوربيين يقبلون فى شغف على محاكاة النماذج العربية ويتأثرون بها بدرجة لا تزال واضحة فيما خلفته العصور الوسطى من مخلفات وآثار متنوعة (١) • وهكذا أصبح نفوذ العرب وتأثيرهم الحضارى على غرب أوربا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر يفوق نفوذ الامبراطورية البيزنطية فى أثره وقوته (٢) •

ولا حاجة بنا الى القول بأن روح التسامح السامية التى عرف بها العرب والتى لا يوجد لها أى نظير فى الشرق أو فى الغرب فى العصور الوسطى ، كان لها أكبر الأثر فى تفهمهم للحضارات الأخرى السابقة تفهما واضحا صحيحا وفى تفهم الأوربيين لحضارتهم تفهما مفيدا واقعيا (٣) • ذلك أن العرب لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين ، وسمحوا للمسيحيين واليهود بالتتلمذ عليهم والاستفادة منهم ، فأقبل الأوربيون فى الأندلس وصقلية والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها مما ساعد على نهضة أوربا فى العصور الوسطى (٤) •

---

(1) Lehaby : The Lagacy of the Middle Ages, p. 61.
(2) Orton : op. cit. p. 91
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4 p. 287
(4) Thompson : op. Vol. 1 pp. 92—93